مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10/ العدد: 3 (2022)، ص: 37-53

أسطورة ليلى الأخيلية من منظور القدماء

The leyend of the leila el akheyaliya from the perspective of the ancients

د. مهاجي فايزة[1]

[1] جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس (الجزائر)،

mahadji22@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/08/02 تاريخ القبول: 2022/09/13 تاريخ النشر: 2022/10/08

ملخص:

أوردت كتب عديدة روايات حول ليلى الأخيلية تذكر ما يجعلها ممجّدة، ذات همّة عظيمة من بين العديد من الشعراء، وتارة تورد بعض التلفيقات المحبوكة لا صلة للشاعرة بها إطلاقا، وتورد صورا جمعت في كتاب قصص العرب لا يمت بصلة الرواية الموثوقة، إلا أننا اعتمدنا على سبيل التوضيح والتبيان للأبيات التي وردت عنها، أما كمصدر تاريخي يعوّل عليه فلا يجزينا في شيء، ومهما يكن فإن الشاعرة في ديوانها تبعث الأريحية لصدق مضامين كلامها ورونق جمال أسلوبها السلس العذب، لها من المميزات الفائقة على اعتلاء دراجات الجمال الفنّي للأسلوب الشعري، و الإخلاص في عفافها وخصالها الرفيعة.

كلمات مفتاحية: التوضيح والتبيان، الجمال الفني، الأسلوب الشعري ،أسطورة، رثاء.

Abstract:

There aremany books written about laila elakheyahya, remember what makes her glorified of great determination among many voets, sometimes it mentions some worven fabrication that have absoletly nothing to do with the poet, she inherited images collected in the book of Arab stories that are

not related to the reliable novel however , we relied as a woy of clarification of the verser redeived about them as for a reliable historibal source nit does not reward us for any thing, what ever it is, the poet in her poetry is comforting for the sincerity of the contents of her words is visit me for the beauty of her smooth and sweet style it has one of the leveld of artistic beauty to the poetice style and sincerity in her chastrity and hight qualities.
Keywords: clarification and explain, artistic beauty, poetic style, legend, lament**.**

***المؤلف المرسل:** فايزة مهاجي.

1. مقدمة

نحاول في هذا البحث ان ندرس شيئا من شعر "ليلى الأخيلية"، حيث أنّ القدماء من النقاد شهدوا لها بالفصاحة والجزالة، فقدموها على الشاعرة الخنساء، وحتى على الفحول من الشعراء، نجد أنّ " ابن سلام في ترجمة "النابغة الجعدي"، بدليل أن هذا الشاعر عنده يعدّ أوّل شعراء الطبقة الثالثة: "وغلبت عليه ليلى الأخيلية". إذ شهد لها "الأصمعي" بمثل هذه الشهادة: "وغلبت على الجعدي". فهي بلا شك تعدّ أميرة شواعر العرب على الإطلاق، فنجدها والحال هذه أنّها ذات صيت مُذاع في بلاد العرب، وكانت ملء السمع والبصر في عصرها، أي عصر الدولة الأموية، وقد وصفت بالحسن والجمال، وأنّها كانت مشهورة ببيانها وفصاحتها، وحفظها أنساب العرب وأيامها، وأشعارها. فشهرتها تعدّت شرقا وغربا. فقصتها مع توبة بن الحُمَيِّر أصبحت أسطورة يرويها ويتناقلها كلّ باحث وكلُّ دارس.

2. أخبارها عن أبي الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني (الأصفهاني، 1983، ص ص 200-232):

هي "ليلى بنت عبد الله بن الرّحّال بن شدّاد بن كعب بن معاوية وهو الأخْيَلُ وهو فارس الهرّار، ابن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة".

وهي من النساء المتقدّمات المذكورات في الشعر من شعراء الإسلام على الإطلاق. (القالي، د.ت، ص ص 93- 96):

3. ليلى الأخيلية وتوبة بن الحميِّر:

و"لتوبة" بن الحميِّر حاجة من الهوى لليلى، فهو توبة بن الحُميِّر بن حزم بن كعب بن خفاجة بن عمرو بن عقيل.

أخبرني ببعض أخبارهما أحمد بن عبد العزيز الجوهري ومحمد بن حبيب بن نصر المُهَلَّبي قالا: حدّثنا عبد الله بن أبي سعد الورّاق قال: حدّثنا محمد بن علي أبو المغيرة قال: حدّثنا أبي عن عبيدة قال حدّثني أنيس بن عمرو العامري قال: كان توبة بن الحُميِّر أحد بني الأسديّة، وهي عامرة بنت والبة ابن الحارث، وكان يتعشق ليلى بنت عبد الله بن الرّحّالة ويقول فيها الشّعر، فخطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجّه إياها وزوَّجها في بني الأدلع.

فجاء يوما كما كان يجيء لزيارتها، فإذا هي سافرة ولم يَرَ منها بشاشة، فعلم أنَّ ذلك لأمر ما كان، فرجع إلى راحلته فركبها ومضى، وبلغ بني الأدلع أنّه أتاها فتبعوه ففاتهم. فقال "توبَة" في ذلك:

نَأَتْكَ بليلَى دارُها لا تَزورها وشطَّت نواها واستمرَّ مريرُها

أخبرني أحمد بن عبد العزيز قال: حدّثنا عمر بن شبّة قال:

كان "توبةُ بن الحميِّر" إذا أتى "ليلى الأخيلية" خرجت إليه في بُرقُع. فلمَّا شُهِر أمرُه شكَوه إلى السلطان، فأباحهم دمه إن أتاهم .فمكثوا له في الموضع الذي كان يلقاها فيه. فلمّا علمتْ به خرجت سافرة حتّى جلست في طريقه. فلمَّا رآها سافرة فَطِن لِما أرادت أنَّه قد رُصِد، وأنّها سَفَرتْ لذلك تُحذِّره، فركض فرسه فنجا. وذلك قوله:

وكنتُ إذا ما جئت ليلى تبرقعتْ فقد رَابَني منها الغداة سُفُورها

قال أبو عبيدة: وحدّثني أُنيس أنّه كان يكثر زيارتها. فعاتبه أخوها وقومُها فلم يعتب (لم يرضهم)، وشكوه إلى قومه فلم يُقلِع، فتظلَّموا منه إلى السلطان فأهدر دمه إن أتاهم. وعلمت "ليلى" بذلك، وجاء زوجها وكان غيورا فحلف لئن لم تُعلِمْهُ بمجيئه لَيقتلنّها، ولئن أنذرته بذلك ليقتلنّها، قالت "ليلى": وكنت أقْدِرُ على كلامه لليمين، فسفرتُ وألقيتُ البرقع عن رأسي. فلمَّا رأى ذلك أنكره. فركب راحلته ومضى ففاتهم.

4. مقتل توبة وسببه:

أخبرني بالسبب في مقتل "توبة" محمد بن الحسن بن دُريد إجازة عن أبي حاتم السّجستاني عن أبي عُبيدة والحسن بن علي الخفّاف قال: حدثّنا عبد الله بن أبي سعد، قال: حدّثنا محمد بن علي بن المغيرة عن أبيه عن أبي عُبيدة، وأخبرني علي بن سليمان الأخفش قال: أخبرنا أبو سعيد السُّكَري عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي، ورواية أبي عبيدة أتمَّ واللفظ له. قال أبو عبيدة:

كان الذي هاج مقتل "توبة بن الحميّر بن حزم بن كعب بن خفاجة بن عمرو بن عوف بن عُقَيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة" أنّه كان بينه وبين بني عامر بن عوف عن عُقيل لحاء، ثمّ إنّ توبة شهد بني خفاجة وبني عوف وهم يختصمون عند همام بن مطرف العقيلي في بعض أمورهم. قال:

كان مروان بن الحكم يومئذ أميرًا على المدينة في خلافة معاوية بن أبي سفيان، فاستعمله على صدقات بني عامر.

قال: فوثب ثورُ بن أبي سِمعان بن كعب بن عامر بن عوف بن عُقيْل على توبة بن الحُميّر فضربه بجُزُر وعلى توبة الدِّرع والبَيضةُ، فجرح أنف البيضة وجه توبة. فأمر همّام بثور بن أبي سمعان فأقعد بين يدي توبة، فقال: خذ بحقِّك يا توبة، فقال له توبة: ما كان هذا إلّا عن أمرك، وما كان ليجترئ عليَّ عندك غيرك.

وأمّ همّام صوبانة بنت جَوَن بن عامر بن عوف بن عقيل، فاتّهمه توبة لذلك، فانصرف ولم يقتصّ منه.

قال: ويرجع بنو عوف بن عقيل حين لم يجدوا أثر توبة فيلقون رجلا من غنيّ، فقالوا له: هل أحسست في مجيئك أثر خيل أو أثر إبل؟ قال: لا والله. قالوا: كذبتَ وضربوه.

فقال: يا قوم لا تضربوني، فإنّي لم أجد أثرا، ولقد رأيت زهاء كذا وكذا إبلاً شخوصا في هاتيك الهضبة. فأشرف على القوم، فلمَّا رآهم ألوى بتوبة لأصحابه حتى جاءوا، فحمل أوّلهم على القوم حتّى غشيَّ توبة، وفزع توبة وأخوه إلى خيلهما، فقام توبة إلى فرسه فغلبته لا يقدر على أن يلجمها ولا وقفت له.

فخلَّى طريقها، وغشيه الرّجل فاعتنقه، فصرعه توبة وهو مدهوش وقد لبس الدِّرع على السَّيف فانتزعه ثم أهوى به ليزيد بن رُوَيْبَة فاتقاه بيده فقطع منها، وجعل يزيد يناشده رَحِم صفيّة وصفيّة أم له من بني خفاجة. وغشي القوم توبة من ورائه فضربوه فقتلوه، وعلقهم عبد الله بن الحميّر يطعنهم بالرّمح حتى انكسر.

قال: فلمَّا فرغوا من توبة لوَوا على عبد الله بن الحُميّر فضربوا رجله فقطعوها. فلما وقع بالأرض أشرع سيفه وحده ثم جثا على ركبتيه وجعل يقول: هلُمُّوا، ولم يشعر القوم بما أصابه. وانصرف بنو عوف بن عُقيل، وولّى قابض منهزما حتّى لحق بعبد العزيز بن زرارة الكلابي فأخبره الخبر، قال: فركب عبد العزيز حتّى أتى توبة فدفنه وضمَّ أخاه. ثم ترافع القوم إلى مروان بن الحكم، فكافا بين الدَّمَّين، واحتملت الجراحات، ونزل بنو عوف بن عقيل البادية، ولحقوا بالجزيرة والشام.

5. ليلى ترثي توبة (المبرد، د.ت، ص 28):

فقالت ليلى الأخيلية بنت عبد الله بن الرّحّالة بن شدّاد بن كعب بن معاوية فارس الهزار بن عبادة بن عقيل (الدينوري، 2005، ص ص 270-272):

نظرت وركن من دفانين دونه مفاوز حوصى، أي نظرة ناظر

وقالت ترثيه:

أقسمت أرثي بعد توبة هالكا وأحفل من دارت عليه الدوائر

لعمرك ما بالموت عار على الفتى إذا لم تصبه في الحياة المعاير

وقالت ترثيه:

كم هاتف بك من باكٍ وباكيَة يا توب للضّيف إذ تدعى وللجار

وقالت ترثيه:

هراقت بنو عوف دما غير واحد له نبأ نجديّة سيغور

وقالت ترثيه:

يا عين بكّي بدمع دائم السّجم وابكي لتوبة عند الرّوع والهم

على فتى من بني سعد فجعت به ماذا أجنّ به في الحفرة الرّجم

وقالت ليلى تعيّر قابضا:

جزى الله شرًّا قابضا بصنيعه وكلّ امرئ يجزى بما كان ساعيا

دعا قابضا والمرهفات يردنه فقبّحت مرعوّا ولبيك داعيا

وقالت لقابض وتعذر عبد الله أخا توبة:

دعا قابضا والموت يخفق ظلّه وما قابض إذ لم يجب بنجيب

وآسى عبيد الله ثم ابن امّه ولو شاء نجّى يوم ذاك حبيبي

6. خروج توبة إلى الشام وخبره مع الزّنجيّ:

أخبرني الحسن بن علي عن عبد الله بن أبي سعد عن أحمد بن معاوية بن بكر قال: حدّثني أبو الجرّاح العقيلي عن أمّه دينار بنت خبيريّ ابن الحُميّر عن توبة بن الحُميّر قال:

خرجت إلى الشام، فبينا أنا أسير ليلة في بلاد لا أنيس بها ذات شجر نزلتُ لأريح، وأخذت ترسي فألقيته فوقي، وألقيت نفسي بين المضطجع والبارك. فلمّا وجدت طَعْمَ النَّوم إذا شيء قد تجلّلني عظيم ثقيل قد برك علّي، ونشزْتُ عنه ثم قمصتُ منه قماصا فرميت به على وجهه، وجلست إلى راحلتي فانتضيت السيف، ونهض نحوي فضربته ضربة انخزل منها، وعدت إلى موضعي وأنا لا أدري ما هو أإنسان أم سبعٌ؛ فلما أصبحت إذا هو أسْوَد زنجي تضرب برجليه وقد قطعت وسطه حتّى كدت أبريه، وانتهيت إلى ناقة مناخة موقّرة ثيابا من سلبه، وإذا جارية شابّة ناهد وقد أوثقها وقرنها بناقته. فسألتها عن خبرها، فأخبرتني أنّه قتل مولاها وأخذها منه. فأخذت الجميع وعدت إلى أهلي. قال أبو الجرّاح قالت أمي: وأنا أدركتها في الحي تخدم أهلنا.

7. حديث معاوية مع ليلى:

أخبرنا اليزيدي عن ثعلب عن ابن الأعرابي قال: أخبرنا عطاء بن مصعب القرشيّ بن عاصم الليثي عن يونس بن حبيب الضّبّيّ عن أبي عمرو بن العلاء قال:

سأل معاوية بن ابي سفيان ليلى الأخيلية عن توبة بن الحُميّر فقال: ويحك يا ليلى! أ كما يقول الناس كان توبة؟ قالت: يا أمير المؤمنين ليس كل ما يقول الناس حقاً، والناس شجرة بغي يحسدون أهل النّعم حيث كانوا وعلى من كانت. ولقد كان يا أمير المؤمنين سبْطَ البنان، حديد اللسان، شجّاً للأقران، كريم المجنر، عفيف المئزر، جميل المنظر. وهو يا أمير المؤمنين كما قلت له. قال: وما قلتِ له؟ قالت: قلت ولم تعدَّ الحقّ وعلمي فيه:

بعيـد الثّرى لا يبلـــغ القوم قعره ألدّ ملدّ يغلب الحـق باطله

إذا حـــلّ ركـــب في ذراه وظـلّـه ليمنعهم مما تخـاف نوازله

حماهم بنصل السَّيف من كل فادح يخافونه حتّى تموت خصائله

فقال لها معاوية: ويحك! يزعم الناس انّه كان عاهرا خاربا

فقالت من ساعتها:

معـاذ إلهي كـــان والله ســيّدا جــوا ذا على العلاّت جمّا نوافله

أغرّ خفاجيّا يـــرى البخل سبّة تحـــلب كفّاه الـــندى وأناملـــه

عفيفا بعيـــد الهمّ صلبا قناته جميـــلا محيـــاه فليلا غوائلـــه

وقد علم الجوع الذي بات ساربا على الضّيف والجيران أنّك قاتله

وأنّك رحـب الباع يا توب بالقِرى إذا ما لئيم القوم ضاقت منازله

يبيت قرير الـــعين من بات جاره ويضحـــي بخير ضيفـــه ومنازله

فقال لها معوية: ويحك يا ليلى!لقد جزت بتوبة قدره. فقالت: والله يا أمير المؤمنين لو رأيته وخبرته لعرفت أني مقصّرة في نعته وأني لا أبلغ كنه ما هو أهله.

فقال لها معاوية: من أي الرجال كان؟ قالت:

أتته المنايا حـــين تـمّ تمامـــه وأقصر عنه كلّ قرن يطاوله

وكان كليث الغاب يحمـي عرينه وترضى به أشبالـــه وحلائله

غضوب حليم حين يطلب حلمه وسمّ زعاف لا تصاب مقاتله

قال: فأمر لها بجائزة عظيمة.

8. ليلى تصف توبة:

وقال لها: خبّريني بأجود ما قلت من الشعر. فقالت: يا أمير المؤمنين، ما قلت فيه شيئا إلّا والذي فيه من خصال الخير أكثر منه. ولقد أجدت حين قلتُ:

جـــزى الله خيـــرا والجزاء بكفّـــه فتى من عقيـــل ساد غير مكلّف

فتـــى كانـت الدنيا تهـون بأســـرها عليـــه ولا ينفكّ جمَّ التصـــرّف

ينـــال عليّـــات الأمـــور بهونـــة إذا هي أعيت كلّ خرق مشـــرّف
هو الذّوب بل أري الـــخلايا شبيهـــه بدر ياقة من خمر بيسان قـــرقف
فيا تـــوب ما في العيش خير ولا نـــدى يعدّ وقد أمسيت في ترب نفـــنف
ومـا نلت منك النّصف حتى ارتمت بالـ ـمنايا بسهم صـائب الوقع أعجف
فيا ألـــف ألـــف كنت حيًّا مسلَّمًا لألقاك مثل القســور المتطـــرّف
كمـــا كنـــت إذ كنت المنحّ من الرّدى إذا الخيل جالت بالقنا المتقصّف
وكـــم من لهيف محجر قد أحببتـــه بأبيض قطاع الضريبـــة مرهفا
فأنقذتـــه والمـــوت يحرق نابـــه عليه ولم يطعـن ولم يتنسّـــف

9. بين توبة وجميل:

أخبرني الحسن بن علي عن ابن مهرويه عن ابن ابي سعد قال: حدثت عن القَحْدَميّ عن محارب بن غصين العقيليّ قال:

كان توبة قد خرج إلى الشام، فمرَّ بيني عذرة، فرأته بثينة فجعلت تنظر إليه، فشقَّ ذلك على جميل، وذلك قبل أن يظهر حبّه لها.

فقال له جميل: من أنت؟ قال: أنا توبة بن الحُميّر. قال: هل لك في الصّراع؟ قال: ذلك إليك، فشدّت عليه بثينة مِلحفَةً "مورسّه" فاتزر بها، ثم صارعه جميل. ثم قال: هل لك في النّضال؟ قال: نعم، فناضله فنضله جميل، ثم قال له: هل لك في السّباق؟ فقال: نعم، فسابقه فسبقه جميل. فقال له توبة: يا هذا إنّما تفعل هذا بريح هذه الجالسة، ولكن اهبط بنا الوادي: فصرعه توبة ونضله وسبقه.

10. بين ليلى وعبد الملك: أخبرنا إبراهيم بن أيوب عن ابن قتبة قال:

بلغني أنّ ليلى الأخيلية دخلت على عبد الملك بن مروان وقد أسنّت وعجزت: فقال لها: ما رأى توبة فيك حين هَويك؟ قالت: ما رآه الناس فيك حين ولَّوك فضحك عبد الملك حتّى بدت له سنّ سوداء كان يخفيها.

11. وفود ليلى على الحجّاج:

أخبرني الحسن بن علي عن ابن أبي سعد عن أحمد بن رشيد بن حكيم الهلالي عن أيوب بن عمرو عن رجل من بني عامر يقال له ورقاء قال:

كنت عند الحجّاج بن يوسف، فدخل عليه الآذِنُ فقال: أصلح الله الأمير، بالباب امرأة تهدِر كما يهدر البعير النادّ قال: أدخلها. فلما دخلت، نسبها فانتسبت له. فقال: ما أتى بك يا ليلى؟ قالت: إخلاف النّجوم وقلّة الغيوم وكَلَبُ البرد وشدّة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرّد. قال: فأخبريني عن الأرض. قالت: الأرض مقشعرّ، والفجاج مغبرّة، وذو الغنى مختلّ، وذو الحدّ منفلّ. قال وما سبب ذلك؟ قالت: أصابتنا سِنونَ مجحفة مظلمة، لم تدع لنا فصيلا ولا رُبَعًا، ولا تبق نافطة، فقد أهلكت الرّجال، ومزّقت العيال، وأفسدت الأموال، ثم أنشدته الأبيات، وقال الحجّاج: هذه التي تقول:

نحن الأخايل لا يزال غلامنا حتّى يدبّ على العصا مسهورا

تبكي الرّماح إذا فقدن أكفّنا جزعا وتعرفنا الرّفاق بحورا

ثم قال لها: يا ليلى: أنشدينا بعض شعرك في توبة، فأنشدته قولها:

لعمرك ما بالموت عار على الفتى إذا ما تصبه في الحياة المعاير

وما أحد حيّ وإن عاش سالما بأخلد ممّن غيّبته المقابر

فقال الحجّاج لحاجبه: اِذهب فاقطع لسانها. فدعا بالحجّام ليقطع لسانها، فقالت: ويلك! إنمّا قال لك الأمير اِقطع لسانها بالصّلة والعطاء، فارجع إليه واستأذنه. فرجع إليه فاستأمره، فاستشاط عليه وهمّ بقطع لسانه، ثم أمر بها فأُدخلت عليه، فقالت: كاد وعهد الله يقطع مقولي، وأنشدته:

حجّاج أنت الذي لا فوقه أحد إلا الخليفة والمُستغفَرُ الصّمدُ

حجّاج أنت سنان الحرب إن نهجت وأنت للناس في الدّاجي لنا تقد

12. موت ليلى:

أخبرني الحسن بن علي قال حدّثنا ابن أبي سعد عن محمّد بن علي بن المغيرة قال سمعت أبي يقول سمعت الأصمعيّ يذكر أنَّ الحجّاج أمر لها بعشرة آلاف درهم، وقال لها: هل لك من حاجة؟ قالت: نعم أصلح الله الأمير، تحملني إلى ابن عمي قتيبة بن مسلم، وهو على خراسان يومئذ، فحملها إليه، فأجازها وأقبلت راجعة تريد البادية. -قال-: فلما كانت بالرّيّ ماتت: فقبرها هناك. هكذا ذكر الأصمعيّ في وفاتها وهو غلط.

13. رواية أخرى:

وقد أخبرني عمّي عن الحَزَنْبل الأصبهاني عمّن أخبره عن المدائني، وأخبرني الحسن بن علي عن ابن مهديّ عن ابن أبي سعد عن محمّد بن الحسن النّخعي عن ابن الخصيب الكاتب، واللفظ في الخبر للحزنبل، وروايته أتمّ:

أنّ ليلى الأخيلية أقبلت من سفر، فمرّت بقبر توبة ومعها زوجها وهي في هودج لها. فقالت: والله لا أبرح حتّى أسلّم على توبة، فجعل زوجها يمنعها من ذلك وتأبى إلّا أن تلمّ به. فلما كثر ذلك منها تركها، فصعدت أكَمَةً عليها قبر توبة، فقالت: السلام عليك يا توبة، ثمَّ حوّلت وجهها إلى القوم، فقالت: ما عرفت له كذبة قطّ قبل هذا. قالوا: وكيف؟ قالت: أليس القائل:

ولو أنَّ ليلى الأخيلية ســـلّمت عليَّ ودوني تربـــة وصفائـــح
لسلّمت تسليمة البشاشة أوزقا إليها صدى من جانب القبر صائح
وأُغبط من ليلى بما لا أنالـــه ألا كلّ ما قرّت به العين صالـــح

فما باله لم يسلّم عليّ كما قال! وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة، فلمّا رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت في وجه الجمل، فنفر فرمى بليلى على رأسها، فماتت من وقتها، فدُفنت إلى جنبه. وهذا هو الصحيح من خبر وفاتها.

14. ليلى وعاتكة:

أخبرني حرمي عن الزّبير عن يحي بن المقدام الرَّبَعيّ عن عمّه موسى بن يعقوب قال:

دخل عبد الملك بن مروان على زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فرأى عندها امرأة بدوية أنكرها، فقال لها: من أنتِ؟ قالت: أنا الوالهةُ الحَرّى ليلى الأخيلية. قال: أنت التي تقولين:

أريقت جفان ابن الخليع فأصبحت حياض الندى زالــت بهن المــراتب

فعفاته لهفى يطوفـــون حولــه كما انقضّ عرش البئر والورد عاصب

قالت: أنا التي أقول ذلك. قال: فما أبقيت لنا؟ قالت: الذي أبقاه الله لك. قال: وما ذاك؟ قالت: نسباً قُرَشيًّا، وعيشا زخِيًّا، وامرأة مطاعةً. قال: أفردته بالكرم! قالت: أفرده الله به. فقالت عاتكة:

إنهّا قد جاءت تستعين بنا عليك في عين تسقيها وتحميها لها. ولست ليزيدَ إن شفَّعْتُها في شيء من حاجتها، لتقديمها أعرابيا جِلْفًا على أمير المؤمنين، قال: فوثبت ليلى فقامت على رجلها واندفعت تقول (القالي، د.ت، ص ص 93- 96):

ستحملني ورحلي ذات و خذ عليها بنت آباء كرام

إلى أن قالت:

لثام الملك حين تعدّ كعب ذو الأخطار والخطط الحسام

فقيل لها: أي الكعبين عنيت؟ قالت: ما أخال كعبا ككعبي.

15. ليلى والحجّاج أيضا:

أخبرنا اليزيديّ عن الخليل بن أسد عن العمريّ عن الهيثم بن عديّ عن أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير عن محمّد بن الحجّاج بن يوسف قال:

أحجّاج إن الله أعطاك غاية يقصِّر عنها من أراد مـــداها

أحجّاج لا يفلَل سلاحك إنمّا الـــمنايا بكفِّ الله حيث تراها

فقال الحجّاج ليحيى بن مُنقِذ: لله بلادها ما أشعرها! فقال: مالي بشعرها علمٌ. فقال: عليَّ بعبيدة بن موهب وكان حاجبه، فقال: أنشديه فأنشدته، فقال عبيدة: هذه الشاعرة الكريمة، قد وجب حقّها. قال: ما أغناها عن شفاعتها! يا غلام مُرْ لها بخمسمائة درهم، واكسُها خمسة أثواب أحدها كساء خز، وأدخلها على ابنة عمِّها هند بنت أسماء، فقال لها: حلّيها. فقالت: أصلح الله الأمير. أضرّ بنا العريف في الصّدقة، وقد خربت بلادنا، وانكسرت قلوبنا، فأخذ خيار المال. قال: اكتبوا إلى الحكم بن أيّوب فليبتع لها خمسة أجمال وليجعل أحدها نجيبا، واكتبوا إلى صاحب اليمامة بعزل العريف الذي سكته. فقال بان مَوْهَبٍ: أصلح الله الأمير، أأصلها؟ قال: نعم، فوصلها بأربعمائة درهم، ووصلتها هند بثلاثمائة درهم، ووصلها محمد بن الحجّاج بوصفتين.

الحجّاج يسأل:

قال الهيثم: فذكرت هذا الحديث لإسحاق بن الحصّاص فكتبه عنّي، ثم حدثني عن حمّاد الرّاوية قال: لما فرغت ليلى من شعرها أقبل الحجّاج على جلسائه فقال لهم: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا! والله ما رأينا امرأة أفصح ولا أبلغ منها ولا أحسنَ إنشادا. قال: هذه ليلى صاحبة توبة. ثم أقبل عليها فقالها: بالله يا ليلى أرأيت من توبة أمرا تكرهينه أو سألك شيئا يعاب؟ قالت: لا والله الذي أسأله المغفرة ما كان ذلك منه قط. فقال: إذا لم يكن فيرحَمها الله وإيّاه.

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري عن ابن شَبَّةَ عن عبد الله بن محمد بن حكيم الطائي عن خالد بن سعد عن أبيه قال: كنت عند الحجّاج فدخلت عليه ليلى الأخيلية، ثم ذكر مثل الخبر الأوّل، وراد فيه: فلما قالت:

غلام إذا هزّ القناة سقاها

قال، لا تقولي غلام، قولي هُمام (المبرد، د.ت، ص ص 40- 41).

16. فتى الفتيان توبة:

وقالت ليلى الأخيلية ترثي توبة وكان الأصمعيّ يعجب بهذه القصيدة (الضبي، د.ت، ص ص 251- 271):

أيا عين بكّي توبة ابــن حــميّر بسحّ كفيـــض الجدول المتفجِّر
لتبك عليه من خفاجـــة نسوة بماء شــؤون الــعبرة المــتحدّر
سمعــن بهيجا أرهقت فذكرنــه ولا يبعث الأحــزان مثل الــتذكّر
كأن فـتى الفــتيان توبة لم يسر نجــد ولم يطلـــع مع المتغــوِّر
ولم يرد المــاء السّــدام إذا بدا سَنا الصبح في بادي الحواشي منوّر
ولم يغلب الخصم الضجّاج ويملأ الجفـان سديفا يوم نكباء صرصـر
ولم يعل بالجرد الجياد يقــودها بســرّة بين الأشمســات فايصـر
وصحــراء موماة يحاربها الــقطا قطعت على هول الـجنان بمنســر
يقودون قبّا كالسراحيـن لاحــها سراهم وسيــر الــراكب المتهجّر

ولم يكن ليقتصر رثاؤها على توبة، فقد رثت قبله عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فقالت (الضبي، د.ت، ص ص 251- 271):

أبعد عثمان ترجو الخير أمّته وكان آمن مــن يمشي على ساق
خليفة الله أعطاهم وخوَّلهم ما كان من ذهبٍ مَحْضٍ وأوراق
فلا تكذّب بوعد الله واتّقِــهِ ولا تَوكَّلْ على شـــيء بإشفاق
ولا تقولن لشيء سَوْفَ أفعله قد قـــدر الله ما كلّ امرئ لاقٍ

بعد أن أشادت بمناقب الخليفة في هذه المقطوعة، أنهتها بحكم مستمدة من القرآن كما يبدو في البيت الأخير.

أقسمت ألا تبكي بعد توبة هالكا. فقالت: (المُبرد، د.ت، ص 90).

آليت أبكــي بعـد توبــة هالكــا وأحفل من دارت عليه الــدوائر
لعمرك ما بالموت عــار علــى الفتى إذا لم تصبــه في الحياة المعايرُ

وما أحـد حيّ وإن عـاش سالمـا بأخلـد مـمّن غيّبته المـقابر

ومن كان مما يحدث الدهـر جازعا فلا بُـدَّ يوما أن يُرى وهو صابر

وليس لذي عَيْشٍ عن الموت مَقْصَرٌ وليس علـى الأيام والدهر غابرُ

ولا الحيّ ممّا يحدث الدّهر معتَبٌ ولا الميْتُ إن لم يصـبر الحيُّ ناشر

وكل شبـاب أو جديـد إلى بِلـى وكلّ امرئ يومـا إلى الله صـائر

وكـل قـرينَى ألْفَـة لـتفـرّق شتاتا وإن ضناً وطـال التعـاشُر

فـلا يُبعِدنْـك الله حيًا وميّتًـا أخَا الحربِ إن دارت عليك الدوائرُ

فآليتُ لا أنفـكّ أبكيـك ما دَعَتْ على فَنَنٍ ورقـاءُ أو طـارَ طائِـرُ

قتيـل بني عَـوفٍ فيا لَهْفتَا له وما كنت إيّاهُـم عليـه أحـاذِرُ

ولكنَّـما أخـشى عليه قبيلـةلها بدُروب الـرُّوم بادٍ وحاضـر

يبدو أنَّ هذه القصيدة من أجمل شعر ليلى الأخيلية بدليل أنها هي نفسها فضّلتها على بقيّة شعرها عندما طلب منها الحجّاج بن يوسف، لمّا وفدت عليه، أن تنشده بعض من شِعرها في توبة، فأنشدته هذه القصيدة 2 التي تتتابع فيها الحكم عن الحياة والموت، وتذكرنا بحكم زهير بن أبي سلمى على نحو ما في بعض معنيها، وقد جاءت في أسلوب سهل عذب خال من الغرابة والتعقيد، وهي مقتدرة سواء في الأساليب ورثتها من العصر الجاهلي أم في الأساليب الحديثة التي وجدتها في بيئتها الإسلامية.

نلاحظ فن الرثاء في شعر "ليلى الأخيلية"، الذي بلغ نصف شعرها من حيث عدد الأبيات وكله رثائها لحبيبها توبة الذي أحبته حبا جماً ألهب فيها مشاعر الحزن و الأسى و أنطقها شعرا جميلا فتميزت به عن غيرها من شاعرات العرب.

ويقول "سعد بوفلاقة" في شعر ليلة الأخيلية في كتابه شعر النساء في صدر الإسلام و عصر الأموي: "لعل أطول قصدية وصلتنا للإمرأة هي رائية ليلى الأخيلية في رثاء توبة، ويبلغ عدد أبياتها ثمانية و أربعين بيتا، و هي تكاد تخلو من أي مسحة

دينية أو أي لفظة تشعرنا بأنها نظمت في ضلال الدين الإسلامي". (بوفلاقة، 2007، ص 232).

ومن خلال أبياتها أقسمت ليلى الأخيلية أن لا تبكي بعد توبة ولا تحفل ولا ترثي غيره، ولا تبالي بأحد سواء، وهذا القسم يحوي معاني التوكيد، بما في ذلك من نبرات الحزن والأسى على موته، مركزة على الشيم الخلقية التي امتاز بها ثوبة.

وتتابع ليلى نعيها بعد الموت الذي اختطفه منها بدمع لا تجف وروح لا تهدأ على فراقه و بعده عنها وسيطر على أبياتها جو من الحزن والكآبة، وتستمر في كل بيت وبسياق آخر بقلب جريح وحزن شديد ودموع منهمرة و عاطفة صادقة اتجاهه.

17. خاتمة:

على العموم أن الشاعرة كانت تتفوّق أحيانا على الشعراء، وذلك بما ذكره الأقدمون، وأن شعرها أوفر بكثير من شعر شاعرات العصر الأموي، إذ تُعدُّ أميرتهن، وكان أغلب مدحها منبعث عن رغبة في نيل العطايا أو إعجابا وإكبار شمائل فرد أو جماعة، وكان ممدوحها في الغالب خلفاء أو أمراء، أو ولاة، وما افتخارها بقومها إلا عن انتسابها لهم. ويكاد الباحث يلمس من شعرها أنه بات وقفا على شخص توبة دون سائره بما فيه من رثاء وصدق في إخلاص حبها له.

18. قائمة المراجع:

الأصفهاني، أبو الفرج. (1983). *كتاب الأغاني*. (ط6). بيروت: دار الثقافة.

بوفلاقة، سعد. (2007). *النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي*. ط1. بيروت، لبنان: دار المناهل.

الدينوري، ابن قتيبة. (2005). *الشعر والشعراء*. (ط2). بيروت: دار الكتب العلمية.

الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد. (د.ت)، *ديوان المفضليات*. بيروت: دار صادر.

القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عبذون. (د.ت). *كتاب الأمالي*. بيروت: المكتبة العصرية.

المُبرد، أبو العباس محمد بن يزيد.(د.ت). *الكامل*. مصر: دار النهضة.